مبحث فى دراسة البطريسطيقا

بقلم الدكتور على الغمراوى

أستاذ مساعد تاريخ وحضارة العصور الوسطى بجامعة عين شمس وجامعة الكويت

اعتمدت فى هـذه البحث على هانز فرايهر فون كامينهاوزن « آباء الكنيسة اليونان » (الطبعة الرابعة . شتوتجارت ١٩٦٧)(١) و « آباء الكنيسة اللاتين » (الطبعة الثانية . شتوتجارت١٩٦٥)(٢) ولويس جون بيتو « دليل دراسة التاريخ الوسيط » (طبعة منقحة . نيويورك ١٩٦٤)(٣) وقاموس أكسفورد الكلاسيكى (الطبعة الثانية . أكسفورد ١٩٧٠)(٤) .

موضوع البطريسطيقا هو البحث فى المؤلفات الأدبية واللاهوتية لآباء الكنيسة القدامى ؛ فالبطريسطيقا تعتبر بهذا المعنى تاريخا للأدب الكنيسى فى عهوده الأولى، ودرسا للعقيدة والسنن المسيحية ، وفضلا عن هذا مضمونا هاما فى تاريخ الأدب الكلاسيكى الأخير . ولما كان مبحث البطريسطيقا وحده لا يكمن فى الدراسات الفيلولوجية أو فى تاريخ الكنيسة الشامل ، فإنه ليس من اليسير أن نتفهم نطاقها وفقا للخواطر العقيدية ووجهات نظر المصنفين اللاهوتية فحسب .

لعله من الثابت أن التعاليم الإنجيلية ، ورسائل الرسل ، ورؤى الأنبياء ، كانت وحدها منبع للمعرفة الروحية المسيحية فيما قبل القرن الثانى . وقد جاءت بعض

النبوات والوصايا والرسائل مجهولة المنشأ أو منسوبة إلى الشهود الرسوليين فى الزمن الأول . وفى غضون القرن الثانى ، بعد أن أصبح التصور الموضوعى لتعاليم الكتاب المقدس أمرا ممكنا ، ظهر من المفكرين المسيحيين من عرفوا بآباء الكنيسة الذين لم يعد فى وعيهم أنهم شهود لدعوة المسيح كما كانت تشعر أجيال العصر الرسولى وما بعده ، ولم يعد كذلك فى حسبانهم أن يكتبوا مؤلفات من نوع الأناجيل وأسفار الرؤيا وبشارات الرسل . لقد كانوا رجالا أرادوا ، بمطلق حريتهم ، أن يضعوا ثقافتهم ومواهبهم فى خدمة الكنيسة ، فقدموا لها تفاسيرا وبحوثا ومقولات جدلية ودفاعية عن العقائد المسيحية ، لها صفة تصنيفية وتهذيبية ، وتاريخية فى بعض الأحيان .

ولما كان الأدب المسيحى قد نما فى بادىء الأمر على يد المثقفين فى الكنيسة اليونانية ، فلم يكن من المستطاع بطبيعة الحال أن يتطور الفكر الدينى بعيدا عن تأثير العقلانية اليونانية وتقليد الثقافة الهللينستية . ولعل تساوق الفكر المسيحى بصفة عامة مع كثير من مفاهيم التراث الكلاسيكى ، ذلك التساوق الذى هو من عمد الثقافة الأوربية ، كان أهم انجازات آباء الكنيسة الذين لم يكن يعنيهم فى واقع الأمر ، وفى خضم الجدل حول مضامين العقيدة والتربية المسيحية ، مجرد الحفاظ على تراث العالم القديم بقدر البحث عن الحقيقة المطلقة التى لاتنبعث هناك ، وإنما هم يجدونها فى الكتاب المقدس وفى تقليد الكتاب على مر العصور . وإذا كانت البطريسطيقا كما سبق أن قلنا هى دراسة تاريخ الأدب الكنيسى القديم وتاريخ الدوغما ، الذى يعرض فيما يعرض وجهات النظر اللاهوتية ، فانه يصبح من المتعين على المؤرخ أن يدقق النظر فى مهمة الكنيسة وفى دروس وتعاليم الآباء ، حتى يتفهم الفكر الروحى فيما نبع فى ذلك العالم والزمان .

وأيا ما كان الأمر فان مفهوم « أبي الكنيسة » ، كما قال فريدريش أوفربك ، قد نشأ عن اعتبارات دوغماطيقية صرفة ، وعن حاجات البرهان على التعاليم الجامعة(٥) . فقد انصرف الاهتمام إلى تجميع شواهد المتوترات والمعتقدات من أجل اسناد التعاليم الدارجة الموثوقة والمظنونة على السواء . وبهذا القصد عنى المفكرون في القرن الرابع بمقولات اللاهوتيين الأسبقين ، بوصفها إمامة مع الشرائع وأسفار الكتاب المقدس . ولعل هذه العناية الدوغماطية بالتقليد الكنيسي لاتزال تلعب دوراً هاما في اللاهوت الكاثوليكي حتى يومنا هذا .

غير أن علم اللاهوت يختلف في اعتباره وفي نظرته إلى بعض الشراح الأوائل الذين أصابوا في عصورهم قدرا عظيما من الشهرة وذاع صيتهم في تفسير العقيدة . فهو ينفي عن أوريغين الاسكندراني لقب أبي الكنيسة بصفة قاطعة ، كما يرتاب في حجية أكليمنس هذا . وان قد أولى أغلب الآباء وفي مقدمتهم جوستين، وأرنايوس، ويوساب أسقف قيسارية فلسطين ، وأطناس، وفازيل العظيم ، وغريغور النازيانزي، وغريغور النيساوي ، وسيناز القوريني ، ويوحنا ذهبي الفم ، والأنبا كيرلس بطريرك الاسكندرية ، تقديرا خاصا بوصفهم صفوة المثقفين والعلماء في الكنيسة . ولا جدال في أن هذا التصنيف اللاحق يعد بالضرورة تقيما للشريعة المسيحية والأدب المسيحي القديم .

ومن الجدير بالذكر أن سياقا من الحجج « الأبوية » قد عد ضمن التراث الرسولي ، وأصبح مع العهد الجديد في مجموعة الشرائع الدوغماطية القياسية . هذا وإن كنا نرى أن اللاهوتيين قد استبعدوا بعض المقولات ، على الرغم من قدم عهدها كما اعتبروا بعضا آخر مقولات أبو قريفية لعوزها الصحة . ولا ينبغي على المؤرخين أن يقفوا عند هذه الفروق ، إذ أن الأبوقريفا لها دلالة خاصة ولا شك بالنسبة للمسائل الكنيسية ، بل أن صحة مضمونها يمكن أن تتأكد من واقع ماقد ينطبق عليها

من نصوص العهد ، بحيث يصبح من الجلى أن الدراسة التاريخية الحقة لآباء الكنيسة لا يمكن أن تقلل من شأنها . وما دامت البطريسطيقا القديمة قد اعترفت بتلك المقولات فانها لم تكن تعرف من ثم ما أسماه فريدريش أوفربك بحالة الفوضى والاضطراب .

لقد دعا أوفربك بوصفه فقيهاً ومؤرخاً إلى نقد مؤلفات الآباء نقداً أدبياً دقيقاً وهذا يعنى بالدرجه الأولى دراسة النصوص « الأبوية » دراسة تحليلية . ولعل هذا المنهج هو الذى صادف منذ القرن التاسع عشر مزيداً من الإجماع بين العلماء ، رغم أن الهدف من ورائه لم يتحقق بعد بصفة تامة ، ولا نعتقد أنه سوف يتحقق على هذا النحو ، إذ أن النظرة التاريخية الأدبية هذه ليست كافية بحد ذاتها ، ولا يمكن أن نضعها وحدها فى اعتبارنا ونحن بصدد الدراسة البطريسطيقية الموضوعية . فلم يكن يدور وقتذاك بخلد واحد من آباء الكنيسة أنه من علماء اللاهوت أو جماعة الأدباء بالمعنى الذى نعرفه ؛ فالآباء كانوا ، حسب ظنهم ، يبسطون الحقيقة التى استرشدوها من أجل صلاح الطائفة المسيحية ، والتى توجب عليهم أن يبشروا بها العالم أينما كانوا بعيداً عن مدارج الخطابة والبيان . لقد كانوا فى نظر أنفسهم معلمين للكنيسة وفلاسفة مسيحيين وأصحاب حركة تنويرية لشرح الكتاب المقدس .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه بالجدل الذى ثار حول أول اللاهوتيين من آباء الكنيسة اليونانيين الذين حاولوا فهم المسيحية بروح الفكر الاغريقى ، ونعنى به جوستين الشهيد أو جوستين الفيلسوف كما كان يلقبه المعاصرون . وكان من الطبيعى أن يثور مثل هذا الجدل ، إذ أن تاريخ الفكر يمتد عبر مراحل تتداخل بحكم الضرورة على نحو من شأنه أن يجعل التحديد الذى يضعه المؤرخ لبداية ونهاية أية مرحلة من هذه المراحل من قبيل التيسير على الدارسين ليس إلا ، وهذا مالا يمكن أن ينطبق على الواقع كما يريد .

حقاً لقد تمت كذلك فى النصف الأول من القرن الثانى محاولات عرضية لسوق الرسالة المسيحية فى عبارات فلسفية ، بقصد تبيان أبعاد جديدة ، غير أنها كانت محاولات تفتقر إلى الجدية فى خلق منهج للتفسير اللاهوتى ، الأمر الذى يجعل صدارة آباء الكنيسة من حق جوستين ، فقد كان أول من فسر العقيدة المسيحية بتعاليم الفلسفة الأفلاطونية ، وسبق أكليمنس ومـدرسة الاسكندرية بفكرة « اللوغوس سبرماتيكوس » التى تعنى بلوغ الحقيقة فى المسيح » كما سبق أوريجين الاسكندرانى ويوساب القيسارى بفلسفة التاريخ المسيحية .

ومما سبق قوله فانه يصعب علينا أن نضع بالتالى نهاية لحقبة آباء الكنيسة ، وأن كنا نستطيع أن نتلمس هذه النهاية بقدر الإمكان ، فى الفترة التى أخذ التغير فيها يطرأ على تقليد الآباء ، وأخذت حرية البحث الجدلى لكتب العهد تتحدد من أساسها ، وبعبارة أخرى عندما تغير المنهج اللاهوتى وأصبح أسكولائيا منذ القرن الخامس على التقريب.

ومن المرجح ، حسبما نعرف من تاريخ الفكر المسيحى ، أن أدب آباء الكنيسة اللاتين بدأ بمؤلفات البرشيتر القرطاجي ترتوليان ، وذلك بعد نحو مائة عام على بدئية أدب الكنيسة اليونانية الذى ظل الأدب الرائد فى الغرب اللاتينى إلى قرابة نهاية القرن الرابع . ومع ذلك نرى أن الحياة الكنيسية فى أوروبا اللاتينية قد اكتسبت بادىء ذى بدء شكلا جديداً لم يسبق أن عرفته المسيحية اليونانية من قبل ، وأن اللاهوت بصفة خاصة أخذ يتطور تطوراً ذاتياً كان له على عالم النصرانية أثر فاق بكثير أثر اللاهوت اليونانى ، الذى كان مساره فى تيار الفكر الاغريقى ولا شك على حساب الأصول العبرانية فى العهد القديم .

صحيح أن الغرب اللاتينى ، كما هو الحال فى شأن الكنيسة القديمة ، كان قد انضوى منذ زمن بعيد تحت لواء الثقافة اليونانية ، ولعل هذا هو الذى عجل بتطور الكنيسة الغربية ، غير أن تراث العالم الرومانى لم يغرب فى أفق الفكر الهلينستى ،

وإنما أمكنه بالحوار أن يحتفظ بصفاته وأن يصوغ قالباً فكرياً طبعته العقلية الرومانية بطابعها الخاص . وإذا كان الآباء اللاتين قد درسوا الثقافة الدينية واستقوها من علوم الأساتذة اليونان ، إلا أنهم اختطوا لأنفسهم منذ البداية مدخلا خاصاً إلى الكتاب المقدس وقبل كل شيء إلى العهد القديم .

وصحيح كذلك أن تحفظ الآباء اللاتين ، قبل ميول الفكر الإغريقي الفلسفية واتجاهاته الميتافيزيقية . قد زال في القرن الرابع ، وازدهر اللاهوت من جراء ذلك ازدهاراً كبيراً ، نلمسه في مؤلفات القديس أوغسطين ، إلا أن هذا اللاهوت « الفلسفي » الجديد لم يخلص كذلك من أصول التفكير الرومانية ، ولذلك لم يكن محض مصادفة أن يهتم اللاهوت اللاتيني بالمسألة التي أثارها بولس الرسول عن الإيمان والناموس . والتي كاد اللاهوت اليوناني لايهتم لها ، بل أنها ظلت في معناها غريبة عنه إطلاقاً .

وعلى أية حال كانت هذه الألفة النربية بين الوجود الروماني واليهودية هو الذي جعل الكنيسة اللاتينية قادرة على إدراك ما كان « الإنجيل » يعني بالنسبة لها :

ويهمني في ختام هذا البحث أن أقدم ثبتا بمجموعات المصادر والكتب التي تلزم الباحث في الباترولوغيا وتاريخ الدوغما . أما كتب تاريخ الكنيسة واللاهوت وتاريخ الأدب المسيحي فهي كثيرة ، وأرجو أن أعرض لها في سياق آخر . وان كنت أجد من الضروري أن أشير إلى موللر « تاريخ الكنيسة(٦) » وليتسمان « تاريخ الكنيسة القديمة »(٧) وهارناك «تاريخ الأدب المسيحي حتى يوساب»(٨) وشتيلين « الأدب اليوناني المسيحي القديم »(٩) وباردنهيفر «تاريخ الأدب الكنسي القديم »(١٠) لما لهذه المؤلفات من أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا هذا .

Adnotationes

(1) Campenhausen (H. F. V.), Griechische Kirchenvaeter. 4. Aufl. Stuttgart 1967.

(2) Campenhausen (H. F. V.), Lateinische Kirchenvaetr. 2. Aufl. Stuttgart 1965.

(3) Paetow (L. J.), A Guide to the Study of Medieval history. Revised edition prepared under the auspices of the Medieval Academy. of America New York 1964.

(4) The Oxford classical dictionary. 2 nd ed. Oxford 1970 S. V. Justin Martyr.

(5) F. Overbeck, Ueber die Anfaenge der patristischen Litcratur : Historische Zeitschrift 48 (1882). 418 : "Der Begriff des Kirchenvaters stammt aus der Dogmatik und ist aus den Beduerfnissen des Katholischen Traditionsbeweis entstanden".

(6) Mueller (K.), Kirchengeschichte. 2 Bde. Tuebingen 1892-1902. ImGrundriss der theologisvnen Wissenschaften IV 2 (II, 3. Aufl. 1941 in Gemeinschaft mit H. Von Campenhausen).

(7) Lietzmann (H.), Ceschichte der alten Kirche. 4 Bde. 2. u. 3. Aufl. 1953.

(8) Harnack (A.), Geschichte der christlichen Literatur bis Eusebius. I. Ueberlieferung und Bestand 1893. II. Chronologie 1897–1904.

(9) Staehlin (O.), Die altchristliche griechische Literatur. Als Teilband Von W. V. Christ, Ceschichte der christlichen Literatur. 6. Aufl. Muenchen 1924.

(10) Bardenhewer (O.), Ceschichte der altkirchlichen Literatur. 4 Bde. Freiburg i. B. 1913 —.

Libri

Altaner (B.), Leben, Schriften und Lehre der Kirchenvaeter : in Patrologie. 6. Aufl. 1960 — Bach (j.), Die Dogmengeschichte des Mittelalters Vom christologischen Standpunkt. Bde. Wien 1873—1875— Bibliothek der Kirchenvaeter. 2. Aufl. Kempten-Muenchen 1911 — Bonwetsch (G. N.) Crundriss der Dogmengeschichte. Muenchen 1908 — Clavis patrum Latinorum (= Sacris Erudiri III 1951). ed. E. Dekkers, E. Gaar — Corpus Christianorum (Series latina) St. Peters-Abtei in Steenbrugge 1953 - Corpus ecclesiasticorum latinorum. Wien 1866 — Fischer (G. P.) History of Christian doctrine. New York 1896 (The international theological library IV) — Chiechische christliche Schriftsteller der ersten drei Jahrhunderte. Berliner Akademie 1897 — Hagenbach (K. R.), A history of Christian doctrines (English translation). Edinburgh 1883-1885 — Harnack (A.), Dogmengeschichte. 4. Aufl. Tuebingen 1905 — Harnack (A.) Lehrbuch der Dogmengeschichte. 3 Bde. Freiburg 1886 — 4. Aufl. Tuebingen 1909-1910. 5. Aufl. 1932. Translated from the 3rd ed by N. Buchanan, Histay of dogma. 7 Vols. London 1897 — Loofs (Fr.), Leitfaden Zum Studium der Dogmengeschichte. Halle 1889. 5. Aufl. hrsg. Von K. Aland 1950—1953.6. Aufl. 1959—Patrologiae

Cursus Completus. ed. J. P. Migne. Series Latina. Paris 1844—Series Graeca; Paris 1857. Supplementum. ed. A. Hamman 1958 — Quasten (J.), Patr·logz. Utrecht 1950—Sammlung ausgewaehlter Kirchen-und dogmengesohichtlicher Quellenschriften. hrsg· Von G. Krueger. Tnebingen — Leipzig-Freiburg 1891-1911 — Schmaus (M.), Geiselmann (P.), Rahner (H.) (hrsg.), Handbuch der Dogmengeschichte. 1951 — Seeberg (R.), Grundriss der Dogmengeschichte. 3. Aufl. Leipzig 1910 — Seeberg (R.), Lehrbuch der Dogmengeschichte. 2 Bde. 2. Aufl. Leipzig 1908-1910. Translated into English by C. F. Hay. 2 Vols. Philadelphia C. 1905 — Thomasius (D.) Die Christliche Dogmengeschichte 2 Bde. Erlangen 1836-1887 — Tixeront (J.), Histoire des dogmes. 3 tomes. Paris 1906-1912. Translated by H. L. B., History of dogmas. St. Louis 1910